مالك سمارة *

٣ سنوات بعد النكبة.. تقرير مجلة "لايف" الأميركية عن اللاجئين وردّ غولدا مئير

في أيلولِ العام ١٩٥١، نشرت مجلة «لايف» الأميركية العريقة مقالة خاصة من مخيّمات اللاجئين التي كانت قد أقيمت للتوّ في لبنان، يتوسّطها ملصق لطفلة فلسطينية تبكي أمام خيمتها في «المية مية»، ويتصدّرها «مانشيت" عريض: «اللاجئون العرب المنسيّون: منفيّون من قبل إسرائيل بلا أصدقاء، إنهم يعانون.. ويكرهون الغرب».[١] الصورة التي نقلها كاتب النص، بعد أن أمضى يومين بين اللاجئين، كانت واقعيّة إلى حد كبير ومخفّفة من مفردات السياسة، ومن الشطط الاستشراقي. لقد كتب عن المعيشة اليومية لآلاف الفلسطينيين الذين تُركوا بين تلّة ووادٍ في عين الحلوة والمية المية، مرهونين لإغاثات شهرية موزونة بالسعرات الحرارية، وقد يطفف الميزان أحيانًا، ويائسين تمامًا من أن يصلهم أي نبأ من الساسة، بينما هم يستشعرون مؤامرة العالم، عربًا وغربًا، عليهم. في المتن، مثلًا، صورة لطوابير أطفال في مدرسة المية مية ينتظرون حصتهم اليومية من حليب الإغاثة الذي جمع في خزان صغير؛ مقولة للاجئ اسمه سعيد كعوش: «أريد العودة إلى البيت.. لا مكان في العالم، حتى البيت الأبيض لترومان، يمكن أن أقبل به عوضًا عن منزلي»؛ استطراد للاجئ آخر، اسمه معاذ سليم، بأنه «كان سيقتل نفسه بالسم" لو علم أنه سيعيش في مكان آخر غير منزله؛ ورفض مطلق لفكرة التعويض- وقد كانت في أوجها وقتذاك، مشفوعة بقرار الأمم المتحدة ١٤٩، وترديد الرواية الرسمية الصهيونية عن استعدادها للتفاوض حول قسط من المدفوعات.

بالنسبة لمجلّة كانت توزّع أكثر من مليون نسخة في عددها الأسبوعي، وتبلغ متناول ربع سكّان الولايات المتّحدة[٢]، لم تكن مقالة كتلك لتمرّ من دون أن تحدث

* باحث مختص في الدراسات الإسرائيلية.

بعض الصدى. في الأسبوعين اللاحقين، كانت ترد التعليقات بوفرة على صفحات المجلة، وبالذات من معلّقين بدا أنهم من اللوبي الصهيوني. تحت خانة «رسائل إلى المحررين»، نقرأ احتجاجات من قبيل أن إسرائيل أبدت استعدادها لدفع تعويضات، وأنها «تتصرف على نحو أكثر مسيحية مما درجت عليه الأمم المسيحية نفسها في ماضيها»؛ وثمّة رسالة أخرى ممهورة باسم ستانلي رابينوفيتش، يلوم فيها القادة العرب «على بث الرعب» في نفوس السكان، ويحمّلهم مسؤولية شتاتهم، ويدعو إلى إعادة توطينهم، مؤشّرًا إلى القادة العرب الأثرياء، وتحديدًا الملك عبد العزيز والملك فاروق، ومساجِلًا بأن إسرائيل «صرفت بالعملة الأجنبية الثمينة من أجل إنقاذ المواطنين العرب فيها من جهلهم التقليدي الشديد ومن أمراضهم الكثيرة».[٣] سيصبح هذا الشخص لاحقا رئيسَ الجمعية الحاخامية الأصولية ذات النفوذ في واشنطن «أداس»، وستكون له حظوة لدى مسؤولي البيت الأبيض ونواب الكونغرس وقضاة المحكمة العليا، وسيصير «القائدَ الروحي»، وفق تعبير صحيفة «تايمز أوف إسرائيل»، لرؤساء حكومات إسرائيليين، من بينهم غولدا مئير.[٤]

لكن إحدى فاعلي اللوبي اليهودي ستقرأ تلك المقالة وتخرج منها بوخزة في الضمير. إنها أديلايد أزابو، وقد كانت رئيسة حملة التبرع والدعم في المنظمة النسائية الصهيونية في الولايات المتحدة (هداسا). بعد أيام قليلة، كتبت أديلاد مباشرة إلى غولدا مئير، وقد كانت وزيرة للعمل وقتها، رغم أنه ليس بينهما رابطة، وكانت تعرب في الرسالة عن صدمتها من أن «اليهود يمكن أن يقترفوا مثل تلك الأفعال»، وتطلب إجابات.[٥] ثم لم تأت إجابات غولدا مئير مختلفة عن الردود التي قرأناها آنفًا.

في الواقع، لم يكن ردّ غولدا مئير مختلفًا بالأساس عن الخطاب الإسرائيلي الرسمي برمّته تجاه قضية اللاجئين؛ سوى أنها ربّما عيّنت مباشرة، وبتجرّد من اللغة الدبلوماسية المخاتلة، أنهم «سيكونون طابورًا خامسًا خطِرًا» في الدولة الوليدة؛ واللافت أن هذا البند كان في مسودّة الرد، ثمّ حذف لاحقًا في الرسالة النهائية. والحذف في هذا السياق يشبه التورية في اللغة؛ إنه يحيل إلى المعنى الباطني المراد، المستعار عنه باللغة المرصّعة.

تلك اللغة المرصّعة كانت مستمدّة من ذرائعيّة الصهيونيّة العمّالية، واستعاراتها الإنسانويّة التي تتوسل التماهي مع لغة العالم الحديث. لقد عبّر بن غوريون نفسه عن ذلك عندما سأله الشاعر الصهيوني حاييم جوري: لماذا لم تسيطروا على «أراضي إسرائيل الكاملة»؟، فجاء جوابه أن ذلك كان ينطوي على مشكلة ذات حدين: إمّا أن نبقي على السكان العرب ونواجه أغلبية عربية داخل الدولة، أو نطردها ونواجه مشكلة مع الغرب.[٦]

وقد خلقت له معضلة ما يزيد عن ٨٠٠ ألف لاجئ وقتها بالفعل مشكلة مع الولايات المتحدة، سوى أنها لم تتعدّ السجال الكلامي والأحاديث الصحافية. في ذلك الزمن، مع شرطيّة عهد حقوق الإنسان الناشئ، والرابطة الأممية الجديدة الصاعدة بعد حرب عالمية دموية، كان موقف الولايات المتحدة الرسمي داعمًا لإعادة هؤلاء اللاجئين أو تعويضهم، سوى أن ذلك لم يكن مشفوعًا بفعل سياسي حقيقي؛ وهذا سياق غنيّ بالأسئلة التي ما زالت تستدعي البحث. تظهر وثيقة من أرشيفات الإدارة الأميركية، مثلًا، أن وزير الخارجية الأميركي الأسبق، فيليب سيوب، طلب في لقاء مع مدير شؤون الأونروا، جون بلاندفورد، عام ١٩٥١، أن تتبنّى المنظّمة قضية إعادة التوطين أو التعويض ضمن برنامجها؛ وقوبل هذا بممانعة الأخير.[٧] في الواقع، ربما تقترب الصورة إلى الفهم إذا ما وضعنا مواقف واشنطن بالأمس إزاء مواقفها اليوم من القضايا الجوهرية. لقد ظلّت السياسة الأميركية الرسمية تستعير دبلوماسية الكلام، بما لا ينقض القانون الدولي تشكيله، وتمرير مقولة «الكبار سيموتون والصغار سينسون» يومًا بعد يوم. تشبه الدبلوماسية الكلامية ما نسمعه هذه الأيام من الولايات المتّحدة عن «ضرورة الإبقاء على الستاتسكو بالأقصى»؛ بينما الوضع القائم هو، فعليًّا، الاستعمار؛ والاستعمار بنية مطّردة من المحو لا ستاتسكو فيها.

ربّما يفسّر هذا الموقف الأميركي، في حينها، اهتمام إحدى أكثر المجلات الأميركية انتشارًا بالقضية. لكن الآن، بعد عقود من دبلوماسية الكلام، وبعدما رأينا ثلاثة أجيال تتعاقب في مخيّمات اللجوء، ومع خطط تشميع الأونروا، و«غسل» قضيّة اللاجئين الفلسطينيين بـ«اللاجئين اليهود» من الدول العربية -كما طرحت غولدا مئير في رسالتها، وكما تطرح صفقة القرن اليوم- يمكن القول إن الولايات المتّحدة، وهي المساهم الأول في الأونروا، كانت تدير عملية تصفية ناعمة لقضية

اللاجئين. لدى رؤية مسار الأحداث هذا، ماذا يعني أن تُحيل الولايات المتحدة ملف إعادة التوطين إلى «الأونروا»، ثمّ تسعى في إغلاق المنظمة بعد نحو ٧ عقود من ذلك؟

لكن لا ينبغي أن تفوتنا الفقرة المحذوفة تلك؛ حينما تصف مئير اللاجئين بـ«الطابور الخامس الخطِر جدًّا». نرى الفقرة في المسودة الأولى من الوثيقة

من غولدا مئير إلى السيدة فرانك أزابو
فاريل، بنسلفانيا، الولايات المتحدة الأميركية

عزيزتي السيدة أزابو

سامحيني لعدم ردّي في وقت أبكر على ما كتبتِ لي في ١٦ أيلول، لكن رسالتك صادقة وجدّية وتتطلب ردًّا صريحًا وجدّيًّا بالقدر ذاته؛ لذا انتظرت حتى أحظى ببعض الوقت الحر قبل الكتابة.

مشكلة اللاجئين العرب برمّتها مكدِّرة. على الرغم من ذلك، محنة هؤلاء اللاجئين تستلزم منا البحث عن وسائل ناجعة للحل، بدلًا من التوقف عند الحل الأولي البسيط المطروح؛ ألا وهو عودتهم إلى إسرائيل. إنه لمن المؤسف أن العالم العربي، إلى حد كبير، يهتم لمشكلة اللاجئين بوصفها سلاحًا سياسيًّا وحسب، تمامًا مثلما اعتُبر السكان العرب هنا سلاحًا سياسيًّا من قبل الدول العربية التي هاجمتنا. لا أحد يكترث بالحياة الكريمة لهؤلاء اللاجئين في أوساط قادة وشعوب الدول المجاورة على حد سواء.

من أجل استبيان الحالة بشكل أكبر، أضمّن هنا مذكّرتين دبلوماسيتين نشرتا عبر الدائرة الإعلامية التابعة لحكومتنا؛ الأولى تتعلق بمشكلة اللاجئين العرب، والأخرى بمعاملة العرب الآن في البلاد. اسمحي لي أيضًا أن أضيف الملاحظات الآتية:

١. من تتبّع الأحداث عن كثب في هذا الجزء من العالم ينبغي أن يلقي اللوم في مشكلة اللاجئين العرب بشكل مباشر وقطعي على كاهل مصر وسورية ولبنان وشرق الأردن والعراق، التي هاجمت دولة إسرائيل في أيار ١٩٤٨. كل واحدة من تلك الدول أمِلت وآمنت بتحقيق نصر سريع ورمينا إلى البحر. لقد جاء جنودهم مدفوعين بإمكانية وجود غنيمة سهلة. انضم الكثير من العرب المحليين إلى تلك الجيوش العربية الغازية في مسعى لتدمير اليهود؛ ولم ينجحوا. أوعز اليهود لعدد كبير من المجتمعات السكانية العربية الكبيرة التي وقعت تحت سيطرتهم بالبقاء. معظمها اختار المغادرة. حيفا[٨] مثال صارخ على ذلك، حيث لم تكن حاجة بالنسبة لأهلها للمغادرة لكنهم قرروا، بعدما أمضوا على استسلامهم، أن يغادروا. لقد فعلوا ذلك على أمل أن الجيوش العربية سوف تدخل وتقضي على اليهود، وسيكون بوسعهم حينئذ العودة والاستمتاع ليس فقط بأملاكهم، بل بأملاك «اليهود المغلوبين». من حسن حظّنا أنهم لم يعطوا هذه الفرصة (بالمناسبة، الأرقام لا ترقى إلى ٨٨٠ ألف لاجئ، لكنها تقارب ٥٠٠ ألف. لا أقلّل من أهمية هذا الرقم؛ لكن هذا مثال كافٍ للقول إن أرقام مروّجي الدعاية العرب لا ينبغي أن تقتضي المصداقية دائمًا).

٢. بعيد انتصارنا في حرب التحرير، وقّعنا اتفاق هدنة مع الدول العربية، وعرضنا فورًا تحويل اتفاقيات الهدنة تلك إلى اتفاقيات سلام. عرضنا أن نضع مشكلة اللاجئين في مقدّمة بنود أجندة محادثات السلام. رفضت الدول العربية باستمرار أن تلتقي بنا، ولو أنها مهتمة حقًّا بالحياة الكريمة للاجئين لكانت مستعدة حقًّا للجلوس معنا على الطاولة ومناقشة المسألة.

٣. رفضهم الجلوس ومناقشة السلام معنا يجعل حلّ مشكلة اللاجئين صعبًا للغاية، إذ إن استعادة أي من هؤلاء اللاجئين، في الوقت الذي تهددنا فيه دول عربية بجولة ثانية، يعني أن نقدّم إلى بلادنا طابورًا خامسًا خطِرًا للغاية.

٤. إن كانت الدول العربية المجاورة مهتمّة حقًّا بمحنة اللاجئين، لكان من السهل عليها استيعابهم ودمجهم في اقتصاداتها، وهذا من شأنه أن يساعد توازيًا اللاجئين والدول نفسها بقدر كبير. هذا ما رفضوه؛ والآن في كل الدول العربية التي يجد اللاجئون العرب أنفسهم فيها في الوقت الحاضر، يعيش هؤلاء معزولين في مناطق خاصة، ولا يسمح لهم بالانضمام إلى الحياة الاقتصادية والاجتماعية في البلاد. الضيافة المقدمة لهم من قبل إخوتهم في كل تلك الدول العربية فظيعة. على الرغم من ذلك، ولأسباب سياسية دولية، فإن قادة الدول العربية حريصون دائمًا على ذرف دموع التماسيح كلّما ذكرت كلمة "اللاجئون العرب".

٥. على الرغم من كل ذلك، فقد بذلت إسرائيل الكثير من أجل حل لمشكلة اللاجئين. في المقام الأول، ومع أن ذلك كان يمثّل خطرًا أمنيًّا جدّيًّا لنا، عرضنا، قبل

٣ سنوات بعد النكبة.. تقرير مجلة «لايف» الأميركية عن اللاجئين وردّ غولدا مئير.

عـام ونصـف، اسـتعادة لاجئـين عـرب ممـن كانـوا أفـراد عائـلات عربيـة بقيـت في إسرائيـل. لقـد عرضنـا اسـتعادة ١٠٠ ألـف شـخص. ردّ الـدول العربيـة كان صمتًـا تامًّـا لأسـابيع، ثـم دولـة واحـدة وحسـب، هـي لبنـان، بـدأت تتابـع طلبنـا. تفاعلـت الـدول الأخـرى التـي لحقتهـا عـلى نحـو متقطـع في الأسـابيع التاليـة. بالنسـبة لبلـد صغـير، مثقـل بمشـاكله الكثـيرة، ومنخـرط في أحـداث متكـررة عـلى الحـدود ضـد العـدوان، فـإن العـرض لاسـتقبال عـدد كبـير أظهـر مـن طرفنـا – وأعتقـد أنـك سـتوافقينني- حسًّـا إنسـانيًّا عاليًـا. مـن المهـمّ أيضًـا ملاحظـة أن عـددًا كبـيرًا مـن اللاجئـين العـرب الذيـن نجحـوا في التسـلل إلى إسرائيـل سـمح لهـم بالبقـاء.

٦. لكـن مـن الواضـح أن الحـل الأسـاسي لمشـكلة اللاجئـين العـرب ينبغـي أن يطـرح ضمـن اصطلاحـات مختلفـة تمامًـا. وهنـا المهـم ليـس فقـط أن تكـون هـذه الاصطلاحـات واقعيـة وحسـب، بـل أيضًـا أن تراعـي المصالـح الحقيقيـة والعيـش الكريـم للاجئـين أنفسـهم. دولـة إسرائيـل وجـدت لتبقـى، بمعـزل عمـا إذا كان ذلـك سـيعجب الـدول العربيـة أم لا. لسـت أقـترح للحظـة أن تعجـب فكـرة قيـام دولتنـا اللاجئـين العـرب، لكـن عـلى الرغـم مـن ذلـك هـا نحـن ذا هنـا، وسـنبقى. أليـس مـن الأفضـل إذًا للاجـئ العربـي أن يجـد مسـتقبلًا بـين أبنـاء جلدتـه في الـدول العربيـة؟ تلـك الـدول، وبالأخـص العـراق، تملـك مسـاحات واسـعة مـن الأراضي الخصبـة التـي مـن شـأنها أن تسـتقبل اللاجئـين العـرب؛ وهـم فلاحـون جيـدون للغايـة. بالتأكيد إعـادة توطـين اللاجئين العـرب في الـدول العربيـة هـو أفضل حـل ممكـن، للاجئين والـدول نفسـها. الكثـير مـن الخـبراء الذيـن كانـوا هنـا وزاروا مخيمـات اللاجئـين وعاينـوا المشـكلة يتبنـون رأي أن إعـادة التوطـين هـي الحـل المنطقـي الوحيـد. لكـن لا ينبغـي أن يحـدث هـذا عـبر دفـع الأمـوال للـدول العربية، وإنمـا تحـت رعايـة الأمـم المتحـدة؛ ودولـةُ إسرائيـل وافقـت عـلى المسـاهمة بحصـة كبـيرة في تمويـل إعـادة التوطـين، عـلى أن يـدار ذلـك مـن قبـل وكالـة أمميـة. أود أن أبلغـك أيضًـا أن دولـة إسرائيـل وافقـت كذلـك عـلى دفـع مبلـغ كبـير مـن المـال تعويضًـا عـن الممتلـكات العربيـة التـي تركـت. عـلى الرغـم مـن ذلـك، ومـن بـاب العـدل أيضًـا، نتوقـع عنـد احتسـاب تلـك المبالـغ أن تؤخـذ في الحسـبان الأنفـس والممتلـكات اليهوديـة التـي دمـرت نتيجـة للعـدوان العربـي الغاشـم ضدنـا، وكذلـك ممتلـكات العـرب الذيـن اضطـروا للفـرار مـن الـدول العربيـة ووجـدوا عندنـا هنـا جنـة ومسـتقبلًا.

لا بـد مـن التذكـير، أيضًـا، أن مشـكلة اللاجئـين العـرب مـا كانـت لتنشـأ لـو لـم يهاجمنـا العـرب في أيـار ١٩٤٨، ولـو التزمـوا بقـرار مجلـس الـذي تصـور إقامـة الدولـة اليهوديـة التـي كنـا لنعيـش فيهـا اليـوم، عربًـا ويهـودًا في إسرائيـل، بسـلام جنبًـا إلى جنـب. الغـزو العربـي، مقرونًـا بالقيـادة الكارثيـة للسـكان العـرب هنـا، التـي دفعتهـم إلى المغـادرة، أصبحـت الآن الوقائـع السياسـية للتاريـخ؛ لا يمكـن لعقـارب السـاعة العـودة للـوراء، بالـذات لأن المناطـق التـي كان يقطنهـا عـرب تغـيرت الآن بالكامـل مـع تدفـق لاجئينـا وإقامتهـم.[٩]

الهوامش

1 James, Bell. (17/9/1951). *The Forgotten Arab Refugees: frindless exiles from Israel, they suffer- and hate the west*. Life, Vol 31, No 12. Pp.90-94. Retrieved 1/1/2023, from: https://archive.org/details/Life-1951-09-17-Vol-31-No-12/page/90/mode/2up?view=theater

2 *LIFE magazine in close up*, (3/5/2012). The Literate Lense, Retrieved 1/1/2023, from: https://theliteratelens.com/2012/03/05/life-magazine-in-close-up/

3 Life. (18/10/1951). *Letters to the editors*. Vol 31, No 15, Pp. 27 & 30. Retrieved 1/1/2023, from: https://archive.org/details/Life-1951-10-08-Vol-31-No-15/page/30/mode/2up?view=theater

4 *Stanley Rabinowitz, spiritual leader to presidents and ambassadors, dies*. (12/6/2012). The Times Of Israel. Retrieved 1/1/2023, from: https://www.timesofisrael.com/rabbi-stanley-rabinowitz-spiritual-leader-to-presidents-and-ambassadors-dies/

٥ الإدارة العامة لوزارة العمل، عمالة العرب، الوثيقة رقم ٦١٧٨/٦

٦ حاييم، غوري. (١٩٩٨). القوة تقوم على الجوهر المشترك والصبر، «معرخوت»، ع. ٣٥٩. ص. ٨-١١.

7 *FOREIGN RELATIONS OF THE UNITED STATES, 1951, THE NEAR EAST AND AFRICA*, VOLUME V, 320/11–2251.

٨ كذّبت وثيقة من أرشيف الدولة الإسرائيلية، أفرج عنها في ٢٠١٦، شهادة كانت غولدا مئير سجّلتها في مذكّراتها حول حيفا. لقد كتبت أن بن غوريون أوعز لها بإقناع اللاجئين المنتظرين قواربهم على الشواطئ بالعودة؛ غير أن الوثيقة المذكورة بيّنت أن بن غوريون أمر بعدم السماح بعودة أهالي حيفا «ما دامت الحرب مستمرة». انظر:

Ofer, Aredet, (28/5/2016). *After Capturing Haifa, Ben-Gurion Gave Order to Stop Fleeing Arabs From Returning*, Haaretz. Retrieved at 11/2023, from: https://www.haaretz.com/2015-05-26/ty-article/.premium/ben-gurion-ordered-prevent-arabs-from-returning-to-haifa/0000017f-e967-da9b-a1ff-ed6f52530000

قبل ليلة من توقيع وثيقة الاستسلام، شهدت حيفا قصفًا عنيفًا من العصابات الصهيونية، كانت حلقة أخيرة من الأعمال الإرهابية على مدار أشهر سابقة، تخللتها عمليات تفجير عبوات ناسفة وسيارات مفخخة. للمزيد، انظر، مثلًا:

Walid, Khalidi. (Spring 2008). *THE FALL OF HAIFA REVISITED*, Journal of Palestine Studies Vol. 37, No. 3. Pp. 30–58.

٩ عمالة العرب، مصدر سبق ذكره.

٣ سنوات بعد النكبة.. تقرير مجلة «لايف» الأميركية عن اللاجئين وردّ غولدا مئير.